قدماسارترفي الصحن

و. ريفو دالون

الذين يضفرون الأكاليل لسارتر في لحظة موته، لم يفهموا، على الأرجح، شيئاً من حياته التي يمكن ان يكون ملخّصها المكثف: «لتسقط جميع الأصنام!».

لقد سُئلت أن أقدم شهادة عن جيلي. هي ذي.

إن ما تعلّمته من سارتر في الأربعين سنة التي قرأته فيها، هو أن العالم الواقعي ليس هو على الصورة التي تروى لي. لقد علّمني سارتر، المتحدِّر مثلي من البورجوازية الثقافية الليبرالية، أن التفكير ليس هو اعادة التفكير بما سبق ان قيل حتى اليوم، بل هو، على العكس، الاحتراز من الأفكار الجاهزة. إن التفكير نشاط، ان لم يكن مخرِّباً بصورة نظامية، فهو على الأقل نشاط وقح... وفي رأيي ان سارتر وضع دائمًا قدميه في الصحن وحركهما، مجازفا بتلطيخ جميع الناس وتلطيخ نفسه.

حين كنت ما ازال في السوربون طالبا مجتهدا، كان ثمة ذلك الصوت القادم من خارج المؤسسة، والذي كان يجرؤ مثلا على ان يسم جميع الفلسفات التي كانوا يدرسّونني اياها بأنها «جوهرية». صوت لم يكن العالم في نظره مصنوعاً فقط من الحق والخير والجمال، لم يكن آلة كبيرة مزيتةً جيداً يجد فيها كل شيء مكانه وتبريره. كلا، فقد كان الغثيان، وهو عنوان مثير ومستفز، موجوداً بلحمه ودمه، وكان بأمكانه ان يسلّمنا احد تلك المفاتيح التي كنا عبثاً نبحث عنها في الفلسفات الكلاسيكية. ولقد اظهر لنا سارتر لا جدوى القيم.

ولم يكن كذلك مما يدعو الى اللامبالاة ان تستطيع الفلسفة ان تجد تعبيرها في الرواية.

ان تعبّر عن نفسها بلغة يفهمها الجميع. ان تصنع في المقهى. صحيح ان هناك في العالم شيئاً آخر غير المقاهي، ولكن الصحيح ايضاً ان عدد المقاهي اكبر من عدد «السوربونات»...

نتيجة لذلك، وحتى الأمس فقط، لم يكفّ سارتر عن قلب اليقينيات اي عن فضح الأوهام. لقد كتب في عام ١٩٤٨ «الأيدي القذرة» المسرحية التي تعنف الحزب الشيوعي، ولكنها ما تزال مع الأسف نصاً ينطبق على الحال الراهنة. وتوقيع سارتر، في آب ١٩٦١، على «بيان الـ ١٢١» يعطي هذا النص بُعداً عالمياً، وهو من النسيج نفسه، لقد أُعلن فيه، بوجه الفرنسوية الواثقة من نفسها، ان من حق الجنود ان يتمرّدوا او يفرّوا من «الحرب القذرة» الدموية والعنصرية التي كانت فرنسا مجمعة بشكل عملي على شنها ضد الجزائريين.

وكان اندريه غلوكسمان الوحيد الذي جرؤ على القول، عبر الاذاعة ٢، يوم الاربعاء ١٦ نيسان الماضي، (اي في اليوم الذي تلا وفاة سارتر) ان هذا الاخير هو «الفضيحة» وان سارتر «اسقطنا عن كراسيّنا»، «وأخرجنا من الخارطة» حين جرؤ مثلاً على ان يعطي الكلمة لمومس (البغي الفاضلة). وحين أكد، بكل الهدوء الذي تمنحه البديهيات، ان المستعمر، والمنفي، والمسجون، والخنسي الشاذ، هم كائنات بشرية ككل كائن آخر، يفكرون وينبغي ان يسمع كلامهم.

ومن المرجح ان يكون سارتر قد تراجع آنذاك عن قبوله الذي كان أعلنه عام ١٩٤٢ في «الوجود والعدم» (ص ٦٤٠) بعبارة «جول رومان»: «ليس في الحرب ضحايا أبرياء». الصفحة الوحيدة التي لن اوافق عليها ابداً، حتى في سياقها الكتابي، بسبب من سياقها التاريخي. ذلك ان سارتر أثبت، في سائر فصول حياته وكتبه، ان جميع الضحايا هم، على نحو ما، أبرياء. وهذا ما نفهمه من ان رجليه كانتا دائمًا في الصحن، وتلك هي الفكرة الحيّة، الفكرة التي تكشف ـ اي التي تمرُّ «من الجهة الاخرى»: إن حقيقة العالم البورجوازي هي القمع، والاستغلال، والتعذيب، والمعسكرات، والشرطة، والجبن، والكذب. وحقيقة الشيوعية كذلك.

اننا نسمع في ثرثرات هذه الايام من يقول: «لقد أخطأ وعرف كيف يعترف بخطئه». حبذا لو نسمع كذلك من يتكلم قليلا عن الحالات التي

كان محقاً فيها. هل تراه أخطأ حين فضح عام ١٩٥٣ نزعة معاداة السامية في الاتحاد السوفياتي؟ ومعسكرات «الغولاك» عام ١٩٥٤؟

وفرنسا في حرب الجزائر ١٩٥٦؟ وعلم الطب النفسي القامع ١٩٦٤؟ ورفضه لجائزة نوبل في العام نفسه؟ والجرائم الاميركية في الفيتنام ١٩٦٦؟ وتشبيه قسم كبير من اليسار الفرنسي للدول العربية بأنها دول تقدمية؟ أتراه أخطأ عام ١٩٦٨ (ثورة الطلاب)؟ وهل أخطأ عام ١٩٦٠ بأن يدير جريدة «قضية الشعب»، اياً كانت خلافاته في وجهة النظر مع هذه الجريدة؟ وحين دافع عام ١٩٧١ عن «باديلا» ضد كاسترو؟ وحين تدخّل عام ١٩٧٢ لصالح المعتقلين في فرنسا؟ اننا نستطيع، ويجب ان نتابع حتى ١٩٨٠، الى ان نبلغ الوفد الذي ترأسه سارتر (وكان قليل العدد جداً) الى السفارة السوفياتية بعد اغتيال ثلاثة من الأرمن...

لقد أصبح سارتر، في اعتقادي، المطلب اليومي للنظر الى الأمور مواجهة ولاقتحامها ـ اذا اتاحت الفرصة استجلاءها ـ مهما كانت الصعوبات او العواقب.

وها نحن نسمع اليوم «شباناً» يقولون ما نتوقّع منهم قوله: أن سارتر، في نظرهم، ليست له الأهمية نفسها التي كانت بالنسبة لجيل ١٩٥٠. وهكذا ترتدّ الصناعة الثقافية بسارتر الى الأثريات. لنكن جدّيين: فبالنسبة لجيل كجيلي الذي كان يتعلّم منه أن يخرق القانون، سيكون هناك دائمًا «طابع» سارتر على هذه الأفكار وهذه الأعمال. اما بالنسبة للأجيال التالية، فقد زال الطابع، ولكن ما أهمية ذلك؟! إن المحتوى يبقى، ويحيا، وينمو.

لماذا؟ لأن فلسفة سارتر، في رأيي، هي في فرنسا هذا العصر، «فلسفة الذات الفلسفة الوحيدة التي تبحث في وجه الريح والمدّ عن مكان «الذاتية» في الواقع. لقد رفض سارتر نهائياً مقولة «الذات البورجوازية»، الـ «هاملت» الاستيهامي الذي همّه ان يثبت فقط ان لا مكان للفرد في عالم اليوم. ومع ذلك، فان سارتر لا تسحره الأصوات التي فيما هي ترفض كذلك، وبحق، النزعة الانسانية التقليدية، تتخلص في الوقت نفسه من الماء القذر، ولا تتكلم بعد الا بعبارات القوانين والأشياء والبُنى. إن سارتر يواصل بحثه عن وضع الانسان، وضع البشر. وليس الخطأ خطأه اذا كان الانسان المعاصر مزدوجاً، انساناً وابنَ آوى. ويرتبط بذلك ايضاً ان سارتر، بسبب من هذه الازدواجية نفسها، وبسبب من الحرية، ومن الأمر العارض، التقى «القلق». ولكنه المنظّر الوحيد الذي قدّم عن القلق خطاباً غير بسيكولوجي، كما يقال، خطاباً غير مقلّص.

عن القلق، ولكن ليس عن اليأس. فليس عنده يأس، لأنه يمنح نفسه، ولأنه منحنا الوسائل لنحمي انفسنا من اليأس، بأن نبحث عن الحقائق فيما وراء جدار الضمير الطيّب. لقد كتب سارتر عام ١٩٥٢: «انني اكن للبورجوازية حقداً لن ينتهي الا بانتهائي». ولكن هذا الحقد للنظام البورجوازي (مهما كان لون البورجوازية، حتى ولو كان أحمر) ينتقل من جيل الى جيل، ولن ينتهي الا بانتهاء هذا النظام.

لقد وضع سارتر قدميه في الوعاء. أف! بعد ذلك، لا يمكننا أن نأكل منه.

ترجمة «الآداب»

الأستاذ والمتوحّش

كلود روا

منذ العبارة الاولى التي أطلقها مجهول عام ١٩٣٠ «الحقيقة لا تولد اولاً»، لم يكفّ الناس عن ان يسمعوا من لدن سارتر جلبة من «التلاكم» الداخلي، وأصداء صمّاء لمشادّة لا تنتهي، وهزيم عاصفة في جمجمة، ومصارعة فكرٍ قويّ مع ذات نفسه.

إن سارتر الناثر صاحب فكرة «ان عليه، فيما هو يعرض احاسيسه، ان يضيئها ويوضحها» يأخذ بخناق سارتر الشاعر الذي يرتكب، كجميع الشعراء، ذنب «إسالة عواطفه في قصيدته» والذي يخلط كل شيء بالكلمات بدلاً من إضاءة كل شيء بالمعاني.

إن الوجودي (الذي يفاخر بأنه انسانويّ) يضرب بشدّة على رأس ذلك «الانسانوي» الكبير الذي ينهمك برفع ياقته نحو «القيم الخالدة». إن الأخلاقي الذي يرى أنك «حين تسمّي سلوك فرد، فانك تكشفه له، وبالتالي تغيره، ينتقد انتقادا لاذعاً عالم النفس ذاك المتهم دائمًا بأنه يبحث عن «انسان خالد» فيجد الطبيعة الانسانية، وينسى أن «الكلام يعني العمل»، العمل من أجل التغيير. إن الميتافيزيقي المأسوي والفيلسوف الرصين ينتقدان روح الجدّية. ان المعقلن العنيد ينفذ سهامه بذلك الذي يعتقد بأن العقل لا يعطي الحق لشيء. ان «المحرّك» الذي لا يتعب ولا يكلّ، رئيس الفريق، يحاول ان يخُمد ذلك الذي يعلن: «كل مشروع هو، في نظر من يفكر، «خُلف وعبث». ان المتوحّد الذي يبهره «الحزب» يحاول ان يخُرس المتمرّد المتوحش الذي يبصق في وجه المسوخ الباردة.

لم يسيء أحدٌ لسارتر بقدر ما أساء هو نفسه، حتى آخر حديث له. إن المرء ليبتسم تجاه لهجة المحقق الصغير التي حاول «بيني ليفي» ان يضع بها سارتر على السفود: ولكن قوة سارتر الاولى هي انه لم يوجّه قط الى نفسه حديثاً مؤدباً. حين نشر «الكلمات: سيرتي الذاتية»، حكاية الولد «بوبو» الذي أصبح سارتر الرجل، تمتم ريمون كينو «انه كتاب جميل، ولكني أجد سارتر شديد القسوة مع بوبو». ذلك ان سارتر كان دائمًا قاسياً مع سارتر، حتى حين كان يعمد احياناً الى ايذاء نفسه باعطائها حق ان يخطيء، لأن الحقيقة لا تولد اولاً، بل هي تُصنَعُ وتَصير.

إن «ربّاع» الافكار، عدّاء مباراة الديالكتيك للمسافات البعيدة، مسافات «الشيوعيين والسلم» التي تقطع «الأنفاس» مسافات «نقد العقل الجدلي» او «فلوبير» (اكبر طوفان نقدي في التاريخ الأدبي)، إن سارتر الذي لا يتعب والذي لعب طوال نصف قرنٍ محشو بالايديولوجيات كما يحشى مدفع بالبارود، دورّ الخطيب العالمي،